AZAZIL JOURNEY

تشكّل الرحلة في "عزازيل" خطابا روائيّا

عمارة الجداري/ جامعة سوسة، تونس
amarajeddari@yahoo.fr

قدم للنشر في: 2018/03/03 قبل للنشر في: 2018/04/21

Abstract

After having permeated the Arab literature for ages, Travel writing shifted to novelization hence the journey has become a narrative discourse where in different techniques interact. A text such as "AZAZIL" by Youssef ZEYDANE can reveal this transformation.

Key words: Novel; narrative discourse; Travel.

ملخّص:

انزاح أدب الرحلات الذي طغى على الموروث العربيّ لقرون طوال إلى الأدب الروائيّ. فصارت الرحلة خطابا روائيّا تتفاعل فيه مختلف التقنيّات. ولعلّ نصّا مثل "عزازيل" ليوسف زيدان كفيل بالكشف عن هذا لتحوّل مبنى ومعنى.

كلمات مفاتيح: رحلة – رواية – خطاب روائي.

1– مدخل:

انزاح أدب الرحلات إلى العالم الروائي. فصارت الرواية تعبيرا عن رحلة تقطع الأمكنة والأزمنة لإنشاء كون شعريّ يحاكي الواقع ويتوق مخيالا شاعريّا.

وسنحاول أن نشتغل في هذا المبحث على تصوّر يعنى بالرحلة كما جسّدها نصّ روائي. فـ"**عزازيل**" رواية صوّرت رحلة تشكّلت من جهة الأثر ذاته، ومن جهة بطل عزم على الرحيل طلبا لتعلّم الطبّ والتعمّق في اللاهوت.

وسنتوسّل في ذلك ما خصّ به المنهج البنيويّ الخطاب الروائيّ من تقنيات مميّزة.

1–1– الرحلة مفهوما أدبيا:

يقصد بالرحلة الانتقال[1] من مكان إلى آخر وقيل ارتحل القوم عن المكان بمعنى غادروه[2]. والرحلة والرحيل إسمان دالاّن على مسير القوم[3]. والسائر راحل والمفعول مرحول عنه. وارتحل عن البلد تركه وإلى البلد انتقل[4]، والجمع رِحْلات ورُحْلات ورِحل. وفي شتّى المعاني كانت الرحلة تدلّ على الانتقال والتحوّل من مكان إلى آخر.

وارتبطت الرحلة بالأدب فقُصِدَ بها مجموعة الآثار الأدبيَّة التي تتناول انطباعات المؤلِّف عن رحلاته في بلاد مختلفة، وقد يتعرَّض فيها لوصف ما يراه من عادات وسلوك وأخلاق[5]، أو ما يتلقّاه من شتّى العلوم والسير. فأثْرتْ الرحلة الموروث الثقافيّ، وأنتجتْ

---

[1]- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت- 1414هـ، ج11 ص261
" ورَحَلَ عن المكان يَرْحَل وهو رَاحِلٌ من قوم رَحَل: انتقل... والتَّرحُّل والارتحال: الانتقال وهو الرِّحْلة والرُّحْلة. والرِّحْلة: اسم للارتحال للمَسير"

[2]- نفسه ج11 ص261: ***"وارْتَحَل البعيرُ رِحْلةً: سار فَمَضَى ثم جَرَى ذلك في المنطق حتى قيل ارْتَحَلَ القومُ عن المكان ارتحالاً"***

[3]- نفسه ج11 ص261: ***"والرَّحِيل: اسم ارتحال القوم للمسير"***

[4]- نفسه ج11 ص263

مادّة علْميّة وفقهيّة وجغرافية وأدبيّة مهمّة. وتشكلت في اتجاهات متنوّعة تتّبع مراكز الاستقطاب. فمن الرحلة ما كان متوجّها من الغرب الإسلامي نحو الشرق مثل رحلة موحي الدين بن عربي (558هـ-638هـ)[6] وبقيّ بن مخلد(201هـ-276هـ)[7]. وكانت عديد المدن محلّ شدّ الرحال لطلب العلم مثل بغداد ودمشق والمدينة لما كانت تشهده من إشعاع ثقافيّ وحضاريّ. وكانت عديد الشخصيّات العلميّة والفقهية تقصد لتعلّم حديث وتتبّع سنده وتفسيره وتأويله...

فضلا عن الرحلات التي قصد فيها الغرب بلاد العرب من تجارب الاستشراق التي أسهمت في إنتاج ثقافة مهمّة، وقدّمت دراسات مختلفة استهدفت التجربة ودلالاتها وأبعادها.

وما شهدته الأعمال التاريخية التسجيلية العربيّة لرحلات قام بها روّاد الإصلاح في عصر النهضة مثل الطهطاوي[8] وابن أبي الضياف[9]...

وقد انزاح الأثر البليغ لهذه الرحلات في طلب العلم في الأعمال الروائيّة الإبداعيّة وحلول الشرقيّ في رحاب المجتمع الغربيّ. ومن أمثلة ذلك ذكْرا لا حصْرا تجربة *الحكيم* في *"عصفور من الشرق"*[10] ويحي حقي في *"قنديل أم هاشم"*[11] وسهيل ادريس في *"الحي اللاتيني"*[12] والطيب صالح في *"موسم الهجرة إلى الشمال"*[13].

ولعلّ عملا روائيّا مثل عزازيل ليوسف زيدان كفيل بأن يكشف عن تشكّل الرحلة خطابا روائيّا. فقد مثلت الرحلة عنصرا حكائيّا مهمّا. والكاتب قد صاغ الأثر مستندا إلى راو يسرد سيرته عابرا الأمكنة والأزمنة. فكانت الرواية سيرة يعبّر فيها البطل مشحونا بعواطف مثقلة يروم طلب علميْ الطبّ واللاهوت. ولئن كانت الأفعال/الأحداث رحلة فإنّ السرد عودة واسترجاع لذكرى مسيرة ومحاورة النفس ومناجاتها لإلقاء خطاياها وأعباءها.

---

[5]- نفسه ج11 ص265

[6]- موحي الدين بن عربي: أحد أشهر المتصوفين لقبه أتباعه وغيرهم من الصوفيين " بالشيخ الأكبر" ولذا تُنسب إليه الطريقة الأكبرية الصوفية. ولد في مرسية في الأندلس في شهر رمضان عام 558 هـ الموافق1164 م قبل عامين من وفاة الشيخ عبد القادر الجيلاني. وتوفي في دمشق عام638 هـ الموافق1240 م. ودفن في سفح جبل قاسيون.

[7]- بقيّ بن مخلد: فقيه وإمام ومفسر أندلسي رحل إلى المشرق وجال فيه فسار إلى الحجاز ومصر ودمشق وبغداد والكوفة والبصرة وإفريقية وحلوان وواسط، فسمع من نحو 284 رجلاً وروى عنهم منهم أحمد بن حنبل وابن أبي شيبة وسحنون. وله مع الإمام أحمد بن حنبل قصّة في العزم والصبر مشهورة..

[8]- الطهطاوي (رفاعة رافع)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس 1996.
بقيت في سيرة رفاعة الطهطاوي علامة فارقة تمثّلت في سفره خارج مصر لأوّل مرة سنة 1242هـ1826/ م إلى فرنسا ضمن بعثة عددها أربعين طالبًا أرسلها محمد علي على متن السفينة الحربية الفرنسية (لاتورويت *La truite* في 13 أبريل 1826 لدراسة اللغات والعلوم الأوروبية الحديثة، وكان عمره حينها 24 عامًا

[9]- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربيّة للكتاب، 1999.
خصّص الجزء الرابع لرحلته إلى فرنسا

[10]- الحكيم (توفيق)، عصفور من الشرق، مكتبة مصر،1978.
تعالج رواية «عصفور من الشرق» لتوفيق الحكيم 1938 موضوع «العلاقة بين الشرق والغرب» في ظروف الصدمة التي نشأت عند بدايات النهضة واكتشاف العرب لهول ما وصلت إليه الحضارة الغربية.

[11]- يحي حقي، قنديل أم هاشم، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1994.
تتحدث الرواية عن إسماعيل طالب، يعيش في حى السيدة زينب مع أمه وأبيه، ثم يسافر لاستكمال دراسة الطب في ألمانيا، حيث يحتك بالحضارة الأوروبية وهناك يتعرف على فتاة ألمانية تعلمه كيف تكون الحياة.

[12]- سهيل ادريس، الحي اللاتيني، دار الآداب، 1993.
يمكن إدراج هذه الرواية ضمن الرواية الحضارية التي تصور العلاقة الجدلية بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب، أي أن الرواية الحضارية هي التي تصور العلاقة بين الأنا والآخر أو اللقاء الحضاري بين الشرق بعاداته وديانته ومعطياته الروحية وبين الغرب بمعطياته المادية والعلمية والتكنولوجية.

[13]- الطيب صالح، موسم الهجرة إلى الشمال، دار الجنوب للطباعة والنشر، تونس1990.
في هذه الرواية يزور مصطفى سعيد، وهو طالب عربي، الغرب. مصطفى يصل من الجنوب، من إفريقيا، بعيدا عن الثقافة الغربية إلى الغرب بصفة طالب. يحصل على وظيفة كمحاضر في إحدى الجامعات البريطانية ويتبنى قيم المجتمع البريطاني. هناك يتعرف إلى زوجته، جين موريس، وهي امرأة بريطانية ترفض قبول إملاءات زوجها. بعد أعوام يعود مصطفى إلى بلاده، حيث يلتقي هناك بصورة مفاجئة براوي القصة الذي عاش أيضا في بريطانيا.

1-2- عزازيل رواية:

"عزازيل" رواية من تأليف يوسف زيدان14، صدرت عن دار الشروق في أوّل طبعة سنة ثمان وألفين [2008]. وتدور أحداثها في القرن الخامس الميلادي ما بين صعيد مصر والأسكندرية وشمال سوريا، عقب تبنّي الأمبراطوريّة الرومانيّة للمسيحيّة، وما تلا ذلك من صراع مذهبيّ داخليّ بين أبناء الكنيسة من ناحية، والمؤمنين الجدد والوثنية المتراجعة من جهة ثانية.

وهي رقوق ثلاثون تمثّل سيرة ذاتية للراهب المسيحيّ المصريّ **هيبا** الذي ظلّ شخصيّة متخيّلة في عالم الرواية وليْس لها أساس واقعيّ يروي ما حدث معه في هذه الرحلة من تجارب ذاتيّة.

وقد فازت الرواية بجائزة البوكر العربية سنة 2009 كما حصلت على جائزة "أنوبي" البريطانية كأفضل رواية مترجمة إلى اللغة الأنجليزية سنة2012

1-3- الخطاب الروائي مفهوما:

لم يكن الخطاب مصطلحا جديدا فقد كان هاريس سابوتاي [Zellig Sabbetai Harris] أوّل من استعمله في اللسانيّات الحديثة[15]. وتعامل معه على أنّه **"مجموعة مترابطة من الملفوظات السرديّة التي تعرض للقصّة"[16]** وقد ذهب هذا المذهب باحثا في ما بعد الجملة، ناقدا لما وصل إليه فرناند دي سوسير. وتوارث الدارسون هذا المصطلح في التناول التداولي وينفتح على دراسة الحجاج والبلاغة الجديدة والسياقات التداوليّة. وهو ما يجعله كيانا متجدّدا بما يلقاه من إقبال واسع من قبل الدارسين والباحثين. ويظلّ من الألفاظ الشائعة في حقل الدراسات اللغويّة.

ومفاهيم الخطاب تتعدّد وتتنوّع بين الدارسين والنقاد. لكنّ عنصرا رئيسا يظلّ ثابتا في شتى المقاربات. وهو أن الخطاب مؤسس نظري مهمّ في الاشتغال على النصّ الروائي. ويرتبط بالطريقة التي تُقدّمُ بها مادّة الحكي[17] وتعود هذه الطريقة إلى ما يعرف بالسرديّات البنيويّة. لكنّ مباشرة الأعمال الروائيّة تكشف عن محاولات جديدة ينفتح فيها البناء السرديّ والزمنيّ على مستويات دلاليّة متنوّعة. وتعود مكوّنات الخطاب الروائي الرئيسة إلى الزمن والصيغة والرؤية السرديّة[18]. وموضوع الرحلة في رواية عزازيل قد تفاعل مع مكوّنات الخطاب الروائي ليتشكّل زمنيّا ومكانيّا وبناء الشخصيّات والبنية الحدثيّة وحبكتها.

2- مظاهر تشكّل الرحلة خطابا روائيا:

إنّ عملا روائيّا مثل "عزازيل" ليوسف زيدان كفيل ببيان أهمّيّة الرحلة خطابا روائيّا. وتتجلى الرحلة في جانبين: يتمثّل الأوّل في رحلة قام بها البطل في رحابِيْ المعرفة والكون يتعلّم الطبّ ويبحث في اللاهوت. ولهذه الرحلة أبعادها ودلالاتها. ويتمثّل الثاني في رحلة الأثر يعبر آفاق الخيال والمطلق ويرتدّ إلى عصور يتجاوز حدود الزمن يتوسّل التقيّة في اعتبار النصوص رقوقا سريانية حوّلها الكاتب إلى العربيّة. وليس لنا إلاّ التوسّل بمنهج بنيوي من خلاله نرصد تخلّل الرحلة الخطاب الروائيّ. فانزاح

---

[14]- يوسف زيدان: باحث ومفكر مصري متخصص في التراث العربي المخطوط وعلومه. له عديد من المؤلفات والأبحاث العلمية في الفكر الإسلامي والتصوف وتاريخ الطب العربي. وله إسهام أدبي يتمثل في أعمال روائية منشورة، كما أن له مقالات دورية وغير دورية في عدد من الصحف المصرية والعربية. عمل مستشاراً لعدد من المنظمات الدولية الكبرى مثل: منظمة اليونسكو، منظمة الإسكوا، جامعة الدول العربية، وغيرها من المنظمات. ويعمل منذ عام 2001 مديرا مركز ومتحف المخطوطات في مكتبة الاسكندرية. وقد ساهم وأشرف على مشاريع ميدانية كثيرة تهدف إلى رسم خارطة للتراث العربي المخطوط المشتت بين أرجاء العالم المختلفة.

[15]- جيرالد برنس، قاموس السرديّات، ترجمة السيد إمام، ميربت للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، القاهرة 2003، ص46.

[16]- نفسه، ص48.

[17]- سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 1997.

[18]- نفسه، ص48.

الحديث عن الرحلة ليصبح موضوعا روائيّا. ورواية "عزازيل" قد تجسّدت فيها الرحلة في مختلف المستويات الناهضة بالخطاب الروائي أحداثا ومكانا وزمانا وشخوصا. ويمكن تجسيد ذلك في الرسم التالي:

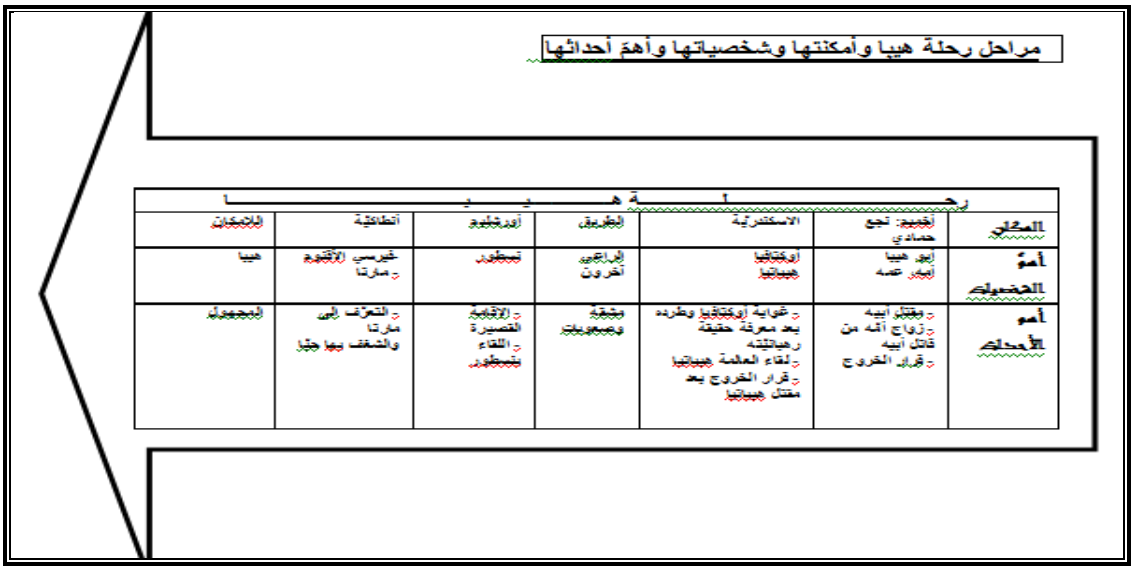

فتتفاعل في الرواية خصائص الخطاب أمكنة وأزمنة وشخصيات وأحداث وامتدادا للعنوان، لتنهض بالرحلة في طلب العلم موضوعا روائيّا.

3-1- الرحلة وسميائيّة العنوان:

يبدو عنوان الرواية لافتا للانتباه حدّ الإثارة وهي غاية رئيسة في الدرس النقدي الذي احتفى بالعنوان أيّما احتفاء باعتباره العتبة الرئيسة لولوج النصّ. و"عزازيل" لفظة موحية مشبعة بالرمز. وتدلّ في الموروثيْن الدينيّ والفكريّ على الشيطان بحسب اللغات القديمة. فقد جاء في الموسوعة الشعرية من كتاب "الباقلاني" لأبي البركات الأنباري[19] أنّ إبليس وقبل أن يرتكب المعصية كان ملَكاً من الملائكة واسمه "عزازيل" ولم يكن من الملائكة ملَكٌ أشدّ منه اجتهاداً ولا أكثر منه علماً وعبادة لله.

ولم تُذكر كلمة عزازيل إلاّ في كتاب "الطواسين" للحلاج الصوفي والطواسين جمع طاسين ومعناها الأزل والالتباس في قوله: **"في أحوال عزازيل أقاويل أحدها أنه كان في السماء داعيا وفي الأرض داعيا في السماء دعا الملائكة يريهم المحاسن، وفي الأرض دعا الإنس يريهم القبائح، لأنّ الأشياء تعرف بأضدادها"**[20]

وتنزّل في الرواية شخصيّة رئيسة تكمن في ذات البطل تدفعه إلى الكتابة والاعتراف. فتجسّد بين النص والعنوان تكامل. وتحقّق في العنوان ما يراه ليو هويك Léo H. Hoek حين يعتبره مقاربة سيميائية للممارسة النصيّة فكان يعرّف العنوان في كتابه "علامة العنوان"[21] تبعا لذلك بكونه **"مجموعة من الدلائل اللسانيّة تثبت في بداية النصّ من أجل تعيينه والإشارة إلى مضمونه الإجماليّ ومن أجل جذب الجمهور المقصود"**[22]

---

[19]- الموسوعة الشعريّة:[https://poetry.tcaabudhabi.ae/search]

[20]- الحلاج الصوفي، كتاب الطواسين، طاسين الأزل والالتباس، ص191:[http://ahmadkelhy.blogspot.com]

[21]- Léo H. Hoek, *La marque du titre : dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle*, Paris, Mouton, 1981 .Cité par J-P Goldenstein, *Entrées en littérature*, Paris, Hachette, 1990, p.68

[22]-Ibid, p.68

«*Le titre est également considéré comme emballage et "incipit romanesque"*»

وشأن عزازيل في الرواية دالّ لساني يحمل بعدا رمزيّا. يوحي في النصّ بما يخامر ذات البطل من استبطان ومناجاة ومحاورة للذات. وكانت الرحلة المتشكلة انتقالا من مكان إلى آخر تنسحب إلى أغوار النفس. فتصبح الرحلة مجازيّة يستبطن فيها البطل ذاته.

3-2- تشكّل الرحلة في قصّة الأحداث:

يتشكّل مفهوم القصّة وفق الأحداث والشخصيات. فتتشابك في مصطلح القصة سلسلة الأحداث التي تشكّل حوارا سرديّا بين فئة من الأشخاص تنقل تفاصيل الوقائع. وهو التعريف الذي حدّده تودوروف في قوله "**القصة مجموع الأحداث المرتبطة بعضها ببعض والمتعلقة بشخصيات تتفاعل بينها تظهر ما يفترض أنها وقعت**"[23]

فالقصّة من هذا الجانب يمكن أن تعالج من جهتي الأشخاص والأحداث. ومرادنا من المبحث انزياح موضوع الرحلة في الرواية إلى التشكّل وفق هذه المستويات. لذلك نجد في بنية الأحداث تشكّلا فريدا معبّرا عن رحلة هيبا بطل الرواية حدثًا وشخصيّةً.

وبنية الأحداث لم تكن بمعزل عن قصديّة المؤلف من روايته ولا بمعزل عن الشخوص التي تفاعلت فيما بينها. والرحلة في طلب العلم كانت القادح في بناء الرواية والمتحكّمة في سيرورة أحداثها وعلاقة البطل بمختلف شخصياتها.

ويُقْصَدُ بالأحداث ارتباط الوقائع وانتظامها انطلاقا من بداية ومراحل ونهاية تؤول إليها فهي في جوهر البناء السردي "**سلسلة من الوقائع المتّصلة تتّسم بالوحدة، والدلالة وتتلاحق من خلال بداية ووسط ونهاية**"[24]. فالأحداث هي ما يمكن أنْ تعبّر عنه الشخصيّة. لذلك يرى بارط أنّ "**الحدث هو مجموعة من الوظائف التي تندرج تحت نفس العامل أو العوامل**"[25]

وحدث رواية "عزازيل" هو الرحلة التي قام بها هيبا بطل الرواية طالبا عِلْمَيْ اللاهوت والطب.

والحدث الذي يحدّده أرسطو باعتباره "**عملية التحول من الشقاء إلى السعادة أو العكس**"[26] يعيشه هيبا راحلا يجمع من غبار الطريق وغبار الذكريات والغوايات والأخطاء ما يجعله حاملا أوزارا مختلفة لن يتخلص منها إلاّ بالكتابة وإرضاء عزازيل الذب بلاحقة ويدفعه إلى الكتابة.

فقد خرج هيبا من صعيد مصر إثر مقتل والده الوثني على يد الرهبان بمساعدة أمّه. فقرّر التوجّه للإسكندرية ليعيش راهباً ويدرس الطب. لكنه استاء من الجوّ السائد والمشحون بالصراعات الدينية والمذهبية، وكان مقتل العالمة هيباتيا المروّع سبباً في مغادرته الإسكندرية؛ ليتجه إلى الشام مروراً بالقدس، وليقرر بعد ذلك الاستقرار بحلب، إلا أنّه بعد حمّى شديدة أصابته وبمجرد التماثل للشفاء هام على وجهه في الأرض دون عنوان نحو المجهول.

والمتأمّل في سيرورة الأحداث يلحظ رحلة هيبا في طلب العلم رحلة نحو السعادة مقصدا، سعادة فعليّة سلوكيّة عامة بما يأتيه من معالجة الناس وتطبيبهم، وسعادة روحيّة بما يأتيه من مناجاة وهو يعالي الروح غوصا في اللاهوت.

فكانت الرقوق الثلاثون معبّرة عن أحداث متلاحقة يغمرها تنوّع الأفكار والمعتقدات والمشاعر.

---

[23]- الشريف حبيلة، بنية الخطاب الروائي دراسة في روايات نجيب الكيالني، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن2012، ص17.

[24]- جيرالدبرنس، المصطلح السردي، ترى جيرالدبرنس، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة1921، ص19.

[25]- جيرالدبرنس، قاموس السرديات، تر السيد إمام، ميربت للنشر والتوزيع، ط1 ،القاهرة 0223 ،ص 11.

[26]- نفسه، ص17.

فلم يخف هيبا في هذه الرحلة شيئاً، معراجه وزهده وروحانيته، بل حتّى سقطاته وانحداراته الشهوانية من خلال إغواء **"أكتافيا"** السكندرية الوثنية، وولعه بحب منشدة الترانيم **"مرتا"** وكراهيته لأمّه التي تواطأت على مقتل أبيه، وزواجها من قاتله.

فأحداث الرواية هي رحلة الراهب هيبا وهو يقصد طلب العلم وكان يصرّح بهذا المقصد في كل رقّ ويسترجعه عند كل حادثة فيجيب دليل المسافرين إلى الاسكندرية **"سألني همسا عن سبب ذهابي للاسكندرية، وضحك لما قلت له ذاهب لطلب العلم"**[27]

وفي غوايات أوكتافيا يفكّر في اختيار يقطع به مسار الرحلة قائلا: **"قلت في نفسي لحظتها سأدرس الطب في البلاد ولن أرتدّ عن الديانة... ستكون أكتافيا موطني وموئل روحي لم لا؟"**[28]

وحين يعالج أحدا يكشف له عن غايته أن يتعلّم الطبّ ويهبه للخلق: **"يا أبت لقد تعلّمت الطب من دون أن أدفع شيئا فكيف آخذ وكما قال مخلصنا يسوع للرسل مجانا أخذتم فمجانا أعطوا"**[29]

والمقصد من الرحلة طلب العلم يظل حاضرا في مسيرة البطل الذي يعاصر أحداثاً دمويّة في تاريخ الكنيسة القبطية، ويتعرض لأكثر من اختبار صعب أمام نساء فاتنات كأوكتافيا ومرتا، ثم أمام الشيطان (عزازيل) الذي تُسمى الرواية باسمه. فيظل هيبا في الرواية إنسانا حائرا مفكرا يبحث عن الحقيقة أينما كانت. فتشكّلت في الرواية صراعات متعدّدة: الإنسان والشيطان، المسيحية والوثنيّة، الكنيسة الأنطاكيّة[30] والكنيسة المرقسيّة[31]، الذكورة والأنوثة.

إنّ سيرورة الأحداث تتفاعل في بنائها مع نمط الرحلة. وما هذه الأحداث إلاّ تشكّل لما يخوض في غمار ذات هيبا الذي يعيد كتابة أطوار الرحلة. فكانت الرقوق تتناول ما حدث له منذ خرج من أخميم في صعيد مصر قاصدا مدينة الاسكندرية لكي يتبحّر في الطبّ واللاهوت. فيتعرض لإغواء أمرأة سكندرية وثنية (أوكتافيا) أحبّته ثم طردته لما عرفت أنه راهب مسيحي. ثم يخرج هاربا من الاسكندرية بعد ثلاث سنوات وقد شهد بشاعة مقتل العالمة هيباتيا الوثنية علي يد الغوغاء من مسيحي الاسكندرية بتحريض من بابا الاسكندرية. ثم يخرج إلي فلسطين للبحث عن أصول الديانة ويستقر في أورشاليم حيث يلتقي بالقس نسطور الذي أحبّه كثيرا وأرسله إلي دير هادئ بالقرب من أنطاكية. فيزداد في ذلك الدير الصراع النفسي داخل نفس هيبا وشكوكه حول العقيدة، ويقع في الآن نفسه في حبّ امرأة تدْعى **(مارتا)**. وينهي الرواية بقرار أن يرحل من الدير وأنْ يتحرّر من مخاوفه دون أن يوضّح إلي أين.

فكانت الرقوق الثلاثون عبارة عن سيرة ذاتية للراهب المسيحي المصري هيبا الذي ظلّ شخصيّة متخيّلة في عالم الرواية وليْس لها أساس واقعيّ. في رحلته طالبا العلم. وكان ما حدث معه في هذه الرحلة مخاوف وشكوك وتجارب ذاتيّة ظلت محفورة في القلب. لكنّ عزازيل يظلّ يلحّ عليه في الكتابة والاعتراف والكشف عمّا يخبّئه: **"أكتب يا هيبا، أريدك أن تكتب، أكتب كأنك**

---

[27]- يوسف زيدان، عزازيل، ص32.

[28]- نفسه، ص91

[29]- نفسه، ص101

[30]- الكنيسة الأنطاكية: هي كنيسة أرثوكسية شرقية مؤسساها بحسب تقليدها الكنسي هما بطرس وبولس. ومقرها الحالي دمشق.

[31]- الكنيسة المرقسيّة: ارتبط وجود هذه الكنيسة بمجيء مرقس الرسول عام 62 ميلاد إلىالاسكندرية البداية للكنيسة القبطية في مصر حيث بشر أهلها بالمسيحية مؤسسً كرسي الاسكندرية الرسولي المعروف باسم الكنيسة القبطية. وللكنيسة القبطية (المرقسية) مكانة كبيرة في تاريخ الكنيسة العالمي لأن منها كان بطاركة الإسكندرية الأقباط العلماء الذين واجهوا الهرطقات المختلفة.

تعترف، وأكمل ماكنت تحكيه كلّه..."، ويقول في ردّه على إستفسار **هيبا "نعم يا هيبا، عزازيل الذي يأتيك منك وفيك."** ويزداد تفاعل الأحداث وضوحا في ارتباطها بشخوص الرواية.

3-3- الشخصيات وتشكّل الرحلة في طلب العلم:

تعدُّ الشخصية العنصر الرئيس في الرواية وقطب رحاها. فلا تتشكّل الأحداث ولا البنية الروائيّة دونها. لذلك اعتبرها النقاد **"عنصرا مصنوعا مخترعا ككلّ عناصر الحكاية فهي تتكوّن من مجموع الكلام الذي يصفها ويصوّر أفعالها وينقل أفكارها وأقوالها"**[32] والشخصيات تتفاعل للنهوض بالبناء الروائيّ ونموّ حدثه وتطوّره وسيرورته. فكانت **"السند المرئي لكلّ الأفعال المنجزة داخل القصّة وهي كيان يتميّز بالتحوّل والعرضيّة"**[33] وعلى هذا الأساس تشكّلت علاقات مخصوصة بين الشخصيّات بل لعلّها تشكّلت باعتبارها وجها من وجوه شخصيّة البطل.

وسنعرض في هذا المبحث مختلف شخصيات رواية "عزازيل" ومواصفات كل شخصيّة واختلافها عن الأخرى. ثم نبيّن كيف تمثّلت مقصد الرحلة الأساسيّ طلب علميْ الطبّ واللاهوت.

هيبا: الغريب الراهب الطبيب خرج يطلب الحقيقة والمعرفة وتعلّم الطبّ. لا تغيب صورته مناجيا **"يا إلهي أتسمعني أنا عبدك المخلص الحيران: هيبا الراهب وهيبا الطبيب وهيبا الغريب..."**[34]

ظل مضطرب الإيمان متزعزعا. وعلى حين كان راهبا يجب عليه محاربة الشيطان نجده يضعف أمامه وأمام غوايات النساء وشهواتهنّ.

عزازيل/الشيطان: مراوغ يزيّن المحرّمات يدعو هيبا لكتابة سيرته وهواجسه. استخدمه الكاتب ليبعثر كوامن الإنسان أو دواخل النفس البشريّة التي لا يبوح بها إلاّ لنفسه في لحظات التأمّل والقلق العميق مثلما يتجلّى في قوله:**"أنا لا وجود لي، مستقلاّ عنك، أنا يا هيبا أنت ولا أكون إلاّ فيك"**[35]... وكثيرا ما يفاجئ هيبا **"يا هيبا قلت لك مرارا أنّي لا أجيء ولا أذهب. أنت الذي تجيء بي حين تشاء أنا آت إليك منك وبك وفيك. إنّي أنبعث حين تريدني لأصوغ حلمك، أو أمدّ بساط خيالك، أو أقلب لك ما تدفنه من الذكريات. أنا أحمل أوزارك وأوهامك"**[36]

نسطور: رجل دين طيّب يتبع أسقف. يتعرّف إليْه هيبا في أورشليم، يشبّ بينه وبين أسقف كنيسة الاسكندرية صراع حول ألوهيّة المسيح ممّا يجعله عرضة للاتّهام بالهرطقة. يعزله مجمع أفسوس الديني وينفيه لآرائه.

كيرلّس: (أسقف الاسكندريّة) راهب قاس يمارس باسم الدين العنف والقتل. ويحرّض عوامّ المسيحيّين على قتل هيباتيا الفيلسوفة، ويصبّ اللعنات على نسطور. وبسببه يهرب هيبا من الاسكندريّة ويكرهها. ويظلّ ذكره عقدة لهيبا طوال حياته.

---

[32]- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2002، ص 111

[33]- سعيد بن كراد، سيميولوجية الشخصيات السردية، المكتبة الوطنية،الطبعة الأولى، الأردن 2003، ص10.

[34]- يوسف زيدان، عزازيل، الرق 30، ص191.

[35]- يوسف زيدان، عزازيل، ص28

[36]- نفسه، ص57

أوكتافيا: امرأة وثنيّة جميلة ناقمة على المسيحيّين وتسخر من عقيدتهم وكتابهم المقدّس الذي ترى فيه مجرّد خرافات. عرفها هيبا خادمة للتاجر الصقلّي. التقى بها بطل الرواية على شاطئ البحر، وتخبره أنّه حبيبها الذي كانت تنتظره وتصحبه معها إلى منزل سيّدها التاجر الصقلي.

وتغويه فيمارس معها الشهوات المحرّمة. وتطرده حين تعرف حقيقته وإيمانه. ثمّ تقتل أثناء دفاعها عن أستاذتها هيباتيا.

هيباتيا: فيلسوفة جميلة عالمة رياضات يطلق عليها الناس أستاذة الزمان ابنة العالم (ثيون) الذي كان يلقي دروسه في معبد السيرابيون. يُعجب بها هيبا ويلتقيها في المسرح الكبير الذي كانت تلقي محضراتها فيه. يحرّض كيرلس الرهبان والناس عليها بدعوى أنها كافرة مهرطقة، فيمسكون بها ويسحلون جلدها ويقرح جلدها، تستنجد بهيبا لكنه لا يحرّك ساكنا، وتحاول اوكتافيا حمايتها لكن عبثاً وينتهي الأمر بمقتلهما. ويبقى المشهد عقدة في داخل هيبا. فيسمي نفسه بنصف اسمها الأول (هيبا) ويخرج من الإسكندرية احتجاجاً على هذه الجريمة البشعة.

فيرسي الأقنوم: راهب طيب ذكي يكره الأنثى ويرى أنّها سبب الخطيئة والغواية. يلتقي به هيبا في الدير السماوي يصبح أقرب الناس إليه.

مرتا : فتاة جميلة فاتنة ومنشدة ترانيم في الكنائس. تأتي إلى الدير مع جدتها وتقرّر البقاء فيه. يدربها هيبا على الإنشاد جريئة اعترفت لهيبا بحبها له، وتقلِبُ حياته رأساً على عقب، يكرّر معها هيبا ما فعله مع أوكتافيا ولكنّه بعد أن يصاب بالحمّى تتركه وترحل إلى حلب.

فضلا عن شخصيات أخرى ثانويّة ذات حضور قليل في الرواية، الأسقف تيودور والد هيبا وأمّه وعمّه والتاجر الصقلّي والأسقف ثيوفليس وربولا الشاعر ورئيس الدير السماوي وجدّة مرتا...)

وحضور هذه الشخصيّات لا يتنزّل منفردا بل يشكّل علاقات مخصوصة مع البطل هيبا: علاقة حبّ وصفاء أو علاقة خوف ورعب أو علاقة صراع دائم وقد حاولنا تجسيد ذلك في هذا الرسم:

علاقات البطل بالشخصيّات

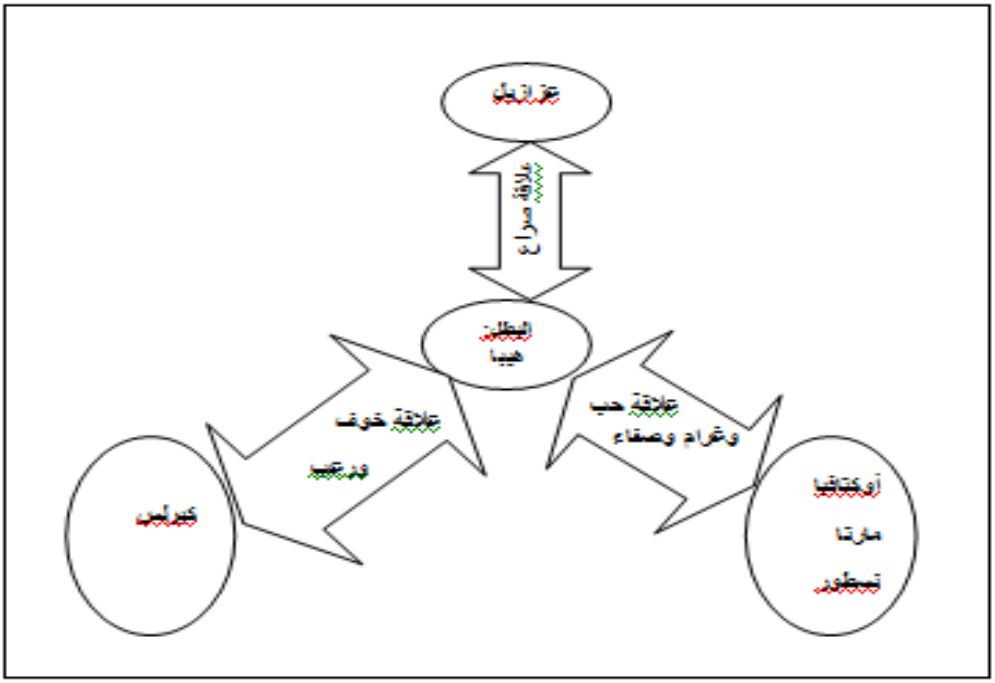

إنّ العلاقات القائمة بين البطل هيبا وبقيّة الشخصيّات ما هي إلاّ تفاعل للتقدّم بسيرورة الحدث. ولهذه العلاقات أثرها في الرحلة مساعدة وعرقلة أو إثراءً للذات في اكتساب طمأنينتها. فتشكّلت علاقات الحبّ صفاءً وشوقا وراحة أو علاقات الخوف رعبا وارتجافا أو علاقات الصراع محاورة وإلحاحا وسعيا إلى التخلّص.

*- علاقات الحبّ والصفاء:

ربطت علاقات الحبّ والصفاء بين هيبا من جهة وثلاث نساء أوكتافيا وهيباتيا ومارتا ورجل نسطور من جهة ثانية. فكان موغلا في إشباع رغباته الجنسية مع أوكتافيا ومارتا، وإشباع رغباته العلمية وشوقه للمعرفة مع هيباتيا. وكان معتنيا بصفاء الروح في علاقته بنسطور يرتاح له يحاكيه يشاكيه يبوح بأسراره: التعميد، قتل أبيه، مقتل هيباتيا.

لكنّ هذه العلاقات كانت ترمي على هيبا البطل بعبء ثقيل. فكانت علاقاته الجنسيّة مع أوكتافيا في الاسكندريّة أو مع مارتا في الدير السماوي خطأ ونزوة شيطانيّة كلّما استحضرتها الذاكرة أفزعت ضميره. وما كتابتها إلاّ تخلّصا من أعباء الماضي.

وكانت علاقته بهيباتيا قائمة على التأثّر، بل قد اختار جزءا من إسمها ليحمله إسما طيلة حياته "هيبا" لتكون نقطة محاسبة على عدم التدخّل لحمايتها.

وكان نسطور بما آل إليْه من إقامة جبريّة عزلته بسبب رؤيته للربّ والمسيح اتهامه بالهرطقة. فرغم ما تتّصف به هذه العلاقات من حبّ وصفاء فإنّها تختتم بالفاجعة.

علاقة الخوف والرعب:

تشكّلت هذه العلاقة بين هيبا وبعض الشخصيّات خاصّة. شخصيّة كيرلّس أسقف الاسكندريّة الذي تسبّب في مقتل العالمة هيباتيا. فكانت صورته عنصرا مفجعا بشخصيّته أو باسمه. فمجرّد ذكره يربك هيبا ويقضّ هدوءه.

علاقة الصراع الدائم:

ربطت بين هيبا وعزازيل علاقة صراع دائم. فكلّما ارتاح هيبا وأسلم نفسه لطمأنينة النفس إلاّ زاره عزازيل يلحّ عليه الكتابة. لكنّ عزازيل لم يكن شخصا عاديّا إنّما كامن في نفس البطل هيبا. يحاوره ينتابه يلحّ عليه بالاعتراف يدفعه إلى الكتابة. فكان مكمن الحيرة **"ما الذي يريده عزازيل منّي، ولماذا يدفعني لكتابة ما كان وما هو كائن؟ لا بدّ أنّ له غرضاً شرّيراً، موافقاً لطبيعته لقد احتال عليَّ حتى أغواني بحكاية ما جرى مع أوكتافيا من فحش وخطيئة، فتدنّست روحي وتكدّرت"**[37].

لكنّ عزازيل كامن في نفس هيبا لا يغادره هو ذاته في أرقى تفاعلاتها تتخلّص من أدران الماضي ومن ثقل الذكريات التي تهدّ طمأنينته: **"يا هيبا قلت لك مرارا أني لا أجيء ولا أذهب. أنت الذي تجيء بي، حين تشاء. أنا آت إليك منك، وبك، وفيك. إنّي انبعث حين تريدني لأصوغ حلمك، أو أمدّ بساط خيالك، أو اقلب لك ما تدفنه من الذكريات. أنا أحمل أوزارك وأوهامك"**[38]

[37]- يوسف زيدان، عزازيل، ص145

[38]- نفسه، ص218

وكانت هذه العلاقة القائمة على الصراع مبعث الرواية وصياغتها. هذه الرواية التي كانت أحداثا محتشدة في رأس هيبا **"من أين أبدأ تدويني؟ البدايات متداخلة ومحتشدة برأسي، ولعلّ البدايات كما كان أستاذي القديم سوريانوس، يقول ما هي إلاّ محض أوهام نعتقدها. فالبداية والنهاية، إنّما تكونان فقط في الخطّ المستقيم..."**[39] وهيبا كان يدفعه عزازيل دفعا إلى أن يرمي ما عليْه من ذكريات رحلته عساه يظفر بمقصد طمأنينة هادئة شأن ما ختم به رحلة الكتابة **"غاب عزازيل بداخلي وسكت، فغمرتني راحة مفاجئة، شعرت بعدها بالفراغ يلفّني... بعد حين توسّدت فراغي ونمت في نومي"**[40]

فكانت رحلة هيبا قاصدا طلب علمي اللاهوت والطبّ يتقرّب إلى الربّ ويعالج خلقه. واستحالت كتابة تروم العوْد لكن إلى أين؟ فقد اختار هيبا المجهول وذهب إلى حيث اللاعلم. فكان تيه الرحلة واستحال شوق العود.

3-3- تجسيد الأمكنة للرحلة:

يمثّل المكان عنصرا رئيسا في تشكيل الخطاب الروائي وقد خصّه الدرس النقديّ بفائض من الاهتمام. فللأمكنة دلالتها المستفيضة لما توحي به من تجسيد مادّي وتشكّل تعبيريّ. لكنّ ذلك لايخفي الوظيفة التي ينهض بها المكان. فلم يعد مجالا تتراصّ فيه الأحداث بل صار مجالا متفاعلا سيّان بثنائيّة الانفتاح والانغلاق أو ببناء الشخصيّة وانفعالاتها النفسيّة أو بتداخله مع الزمان وتشكّل ما يُعرف بالزمكان [space-time][41]. فإذا ما كان الزمن علامة[42] ومظهرا حركيّا تطوريّا بالأساس قائما على تتالي الآنات(Des instants [43]) فإنّ المكان باعتباره التجسيد المرئيّ للأشياء يتمثّله بعدا من أبعاده تقوم عليه العمليّة الإبداعيّة فتتحدّد بذلك علاقة بين المكان والزمان قائمة على التفاعل[44]

وليس أدلّ على أهمّيّة المكان من اختزاله الأحداث والشخصيّات. بل تمثّله لتشكّل الرحلة من بدايتها من نجع حمّادي بأسيوط بصعيد مصر مرورا بدمنهور الاسكندرية ودمياط وسيناء وأورشليم وحلب وأنطاكية وانتهاءً بأفسوس.

والرحلة قد مرّت بهذه الأمكنة ولكلّ مكان أثره الذهنيّ والنفسيّ في حياة البطل. فنجده محبّا للأمكنة الصغيرة مثل الدير السماوي قرب حلب والمكتبة والكنائس الصغرى وناقما على الأماكن الكبيرة مثل الاسكندريّة وأنطاكيّة لما كانت تثيره من فزع ووحشة.

---

[39]- نفسه، ص298

[40]- نفسه، ص312

[41]- عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، ط1، المؤسّسات الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1995ص 79

42- غاستون باشلار, جدليّة الزمن, ص 18.

43- نفسه ص22

[44]- عبد اللطيف الصديقي، الزمان أبعاده وبنيته، ص81

ترتدّ هذه العلاقة إلى العالم الرياضي الشهير هيرمان مينكوفسكي Hermann Minkowiski وهو عالم رياضيات وفيزياء ألماني روسي المولد من أصل يهودي. ولد في 22 يونيو 1864م وتوفي في 18 يناير 1909م] الذي يعتبر أوّل من صرّح بِصِلَةِ الزمن بالمكان سنة ثمان وتسع مائة وألف(1908).

واحتوى هذه الفكرة الفيلسوف الأنقليزي جون لوك J.Lock [جون لوك[29 أغسطس 1632- 28أكتوبر1704: فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنجليزي. ولد في عام 1632 في رنجتون Wringiton في إقليم سومرست وتعلم في مدرسة وستمنستر، ثم في كلية كنيسة المسيح في جامعة أوكسفورد، حيث انتخب طالباً مدى الحياة، لكن هذا اللقب سحب منه في عام 1684بأمر من الملك. وبسبب كراهيته لعدم التسامح البيورتياني عند اللاهوتيين في هذه الكلية، لم ينخرط في سلك رجال الدين. وبدلاً من ذلك اخذ في دراسة الطب ومارس التجريب العلمي، حتى عرف باسم (دكتور لوك)ودرس جون لوك في كرايست تشيرش في أكسفورد وأصبح طبيباً ومستشاراً للإيرال أوف شافتسبري. ثم تحّول إلى الفلسفة، فأنتج طوال فترة عملية غير قصيرة مؤلفاً قيّماً في موضوع المشكلات التي يستطيع الفهم البشري التعاطي بها]. وتمثّلتها النظريّة النسبيّة إلى أبعد حدودها فغدت علاقة المكان بالزمان تتجاوز مجرّد الارتباط والوصل في حدود معروفة إلى الاتّحاد.وانطلق البعد الزمنيّ للمكان تبعا لذلك من تحديده لجملة نقاطه "من حيث أن جزءا من الزمان هو جزء من المكان وبالعكس والنقطة في المكان هي النقطة في الزمان"

فكان التأكيد على العلاقة بين المكان والزمان يصل إلى استحالة التفريق بينهما إذ "لا يمكن تصوّر مكان بدون زمان ولا زمان بدون مكان وبصورة دقيقة لا يمكن تصوّر كلّ على حدة". غير أنّ هذه العلاقة الوطيدة يغيب صداها في بعض الدراسات التي تفصل المكان عن الزمان أو العكس وتجعل اهتمامها مبحثا دون آخر رغم الأبعاد التي يحقّقها التجسيد المكانيّ للزمان.

***– الأماكن الصغيرة المنغلقة الضيّقة:**

مثلت هذه الأمكنة راحة لهيبا. وكان لكلّ مكان دلالته في الرحلة بل مرحلة من مراحلها. وكثيرا ما كانت بعض الأمكنة في الرحلة في ظاهرها ضيّقة منغلقة لكن في باطنها ظلّت مجالا يحقّق فيه البطل راحته. ومن بين هذه الأماكن الدير السماوي قرب حلب والمكتبة والكنائس الصغرى.

فكان الدير السماوي مبعث الهدوء والسكينة، فيقول عنه هيبا ***"كانت أيّامي الأولى في الديرهادئة هانئة. أمضيت أوقاتي في القراءة والعبادة فسكنت روحي"***[45] ولطالما كان هذا المكان يجسّد سكون الروح والقراءة والعبادة. وهو ميسم الرحلة في طلب العلم قراءة (تعلّم الطبّ) وعبادة (رحلة في اللاهوت).

وكثيرا ما كانت الأمكنة امتدادا للذات في سكونها واطمئنانها. فيرى هيبا في الشجرة التي في باحة الدير جزءا منه في تكامل بديع فيقول **"ورحت أتوهّم بعدما أغمضت عيني أنّني صرت والشجرة كيانا واحدا، أحسست بروحي تنسحب من ضلوعي فتتخلّل جذع الشجرة، ثمّ تغوص في جذورها العميقة، وتتوغّل في قلب فروعها العالية. كان كياني يتمايل مع أوراقها، ويتساقط بعضي مع سقوط الأوراق من أغصانها"**[46]

إنّ الأمكنة الضيّقة المنغلقة جزء من ذات البطل. فلئن كانت في ظاهرها أمكنة ضيّقة منغلقة محدودة فإنّها في ذات البطل صورة عن الراحة والطمأنينة والاستقرار خلاف الأمكنة الواسعة المنفتحة.

***– الأمكنة الكبرى المنفتحة الواسعة:**

مرّ البطل هيبا في رحلته بأمكنة واسعة منفتحة. لكنّ صفة الانفتاح لم تنعكسْ إيجابا على البطل الغريب. فكانت تمثّل مصدر قلق وسبب انزعاج دائم. ومن أمثلة هذه الأمكنة أنطاكيّة والاسكندريّة وأورشليم ونجع حمّادي.

فيردّ هيبا على الأب نسطور مبْديا موقفا من أنطاكية: **"أنطاكيّة يا أبت مدينة كبيرة وصاخبة وما عدت قادرا على العيش في مثلها"**[47] فيبدي تبرّمه من ضجيجها وصخبها.

وتظلّ الاسكندريّة أكثر الأمكنة قلقا وانزعاجا. فكلّما ذكرها أو تذكّرها أقضّت مضجعه. فهي ترتبط بالخوف والفجع يقول مثلا: **"خفق قلبي وارتجفْتُ، الاسكندريّة ثانية الأمر إذا جلل وخطير، وكفيل بتبديد الابتسامات التي كانت قبلها بقليل تزيّن الوجوه"**[48]

فدلّ على ما يمكن أن يصيب النفس من أرق وحيرة ودفع الأمل وأسارير الفرح. فكانت الإسكندريّة حارقة الأمل: **"كلما تذكّرت الاسكندريّة امتلأ فراشي شوكا ملحيّا"**[49] هي الاسكندريّة التي عاش فيها فاجعة سحل العالمة هيباتيا، وهو الذي يحمل طموح العلم وحب الرب ورحمة الخلق. بل كان أثر هذه الحادثة أبلغ وأشدّ وطأ حتى على الكاتب نفسه الذي يرى فيه قتلا للعلم على مدى قرون طويلة متتالية من الزمن فيقرّ بأنّه: **"بعد مقتل عالمة الرياضيات الوثنية هيباتيا في الإسكندرية عام**

[45]- يوسف زيدان، عزازيل، ص98
[46]- نفسه، ص 113
[47]- نفسه، ص 69
[48]- يوسف زيدان، عزازيل، ص124
[49]- نفسه، ص 176

415 للميلاد، لم نسمع عن أي عالم أو علم جديد، إلا بعد خمسمائة عام كجابر بن حيان، وأبو بكر الرازي وابن سينا ومن تلاهم"[50]

فارتبط الحدث بالمكان وصارت الفاجعة فاجعة مكان ونقطة محدّدة في رحلة البطل: **"كانت الذكريات التي أثارها سؤال نسطور عن مقتل هيباتيا قد هدّت أركاني طيلة ليلتي السابقة، وأعادتني إلى الومن السكندريّ الذي أفرُّ دوما من ذكراه"[51]**

ويتواصل بناء الأمكنة ويتتالى حضورها وفق مسلك رحلة البطل، وتظلّ الأمكنة الواسعة عنصرا مقلقا يصيبه بالغربة وكأنّ شبح الإسكندريّة المدينة الواسعة امتدّ إلى ذات البطل هيبا الذي صار يفزع من كلّ مدينة كبيرة، يقول عن المدينة المقدّسة أورشليم **"دخلت أورشليم من طريق السامرة وقت الظهيرة، فتملكتني مشاعر الغربة التي تعصف بي في المدن الكبرى"[52]**

فالأمكنة المنفتحة رغم قداستها تمسّ من تفكير البطل وتقضّ طمأنينته، بل تحدّ من روحه التائقة إلى الإطلاق معانقة لتعاليم الربّ. فالأمكنة سواء ما اكتسب قداسة دينيّة أو ما اكتسب ذكرى مسقط رأسه تفقد هيبتها بمجرّد ما تفعله في البطل من قلق وما تبعثه من حيرة شأن رؤيته لمدينته الأولى نجع حمّادي في قوله: **"الحمار يحنّ إلى الأصل، يبتهج بالرجوع إلى الموطن، وأنا ترعبني فكرة الرجوع إلى بلادي ولو في مهمّة قصيرة"[53]**

إنّ الأمكنة التي تمثّل مسارا لرحلة البطل ما هي إلاّ انطباعات ذاتيّة. فالبطل كان يرحل في نصّه في اتجاهات غريبة تبدو في ظاهرها وجهات مكانيّة وتاريخيّة لكن المتمعّن يكتشف غرابة الوجهة الداخليّة في أغوار الذات عتابا ومكاشفة ومحاسبة. فكانت المغامرة رحلة تيه في المكان وإنْ كان مقصدُها محدّدا مضبوطا فإنّ مغامرة الكتابة استرجاعا وشوقا للعودة تخلّصا من الأعباء والخبايا التي استثقلتها النفس.

فكان لكلّ مكان في الرحلة دلالته وارتباطه بحوادث تقضّ مضجع هيبا المخلص الحيران. بل تجسّدت مرتبطة بالحوادث والشخوص.

وارتبطت الرحلة في المكان بلقاء شخصيّات لم يتكرّر وجودها في النصّ... بل كان تكرارها كامنا في الذات يحييه تيّار الوعي القائم على استرجاع أحداث يحاسب بها الشاعر نفسه ويعاتبها. لتستحيل الرحلة عناصر كامنة في الذات تقضّ مضجع البطل. فكان كلّما سكن نهض فيه عزازيل يدفعه إلى الاعتراف كتابة داعيا ملحّا **"أكتب يا هيبا، أريدك أن تكتب، اكتب كأنك تعترف، وأكملْ ما كنتَ تحكيه، كلّه..."[54]**

فكانت دعوة عزازيل خلاص لهيبا من أعباء الذكريات.

[50]- يوسف زيدان في ردّه على اختياراته الفنّيّة في الكتابة، موقع يوسف زيدان، عزازيل.
[51]- يوسف زيدان، عزازيل، ص 214
[52]- نفسه، ص 198
[53]- نفسه، ص 258
[54]- يوسف زيدان، عزازيل، ص149

3-4- التجسيد الزمنيّ للرحلة:

تتجلّى الرحلة في طلب العلم في رواية عزازيل في تعبيرها عن أشواق البطل في مقصده. ولئن قورب الزمن في الدرس النقديّ على اعتباره زمن الخلق والزمن الخارجي والزمن الداخلي. فإن الرحلة في عزازيل تُبْنى زمنيّة مخصوصة. لأنّ فنّية الكتابة كانت متلبّسة بذات البطل وأشواقه وبالرحلة التي خاضها الكاتب. فكانت الرواية في زمن الحكي المعلن رواية كتبها يوسف زيدان في ثمان وألفين [2008]. والزمن الخفيّ يصرّح به الكاتب إنْ حقيقة أو مخاتلة في بداية الرواية قائلا ***"يضمّ هذا الكتاب الذي أوصيت أن ينشر من بعد وفاتي ترجمة أمينة قدر المستطاع لمجموعة اللفائف (الرقوق) التي اكتشفت قبل عشر سنوات بالخرائب الأثريّة الحافلة الواقعة إلى جهة الشمال الغربي من مدينة حلب السوريّة(...) مع أنّها كتبت في النصف الأوّل من القرن الخامس الميلادي، وتحديدا: قبل خمس وخمسين وخمسمائة وألف من سنين هذا الزمان"*** [55]

وتعتبر هذه الفترة أوْج ما بلغه التاريخ المسيحي الكنسي من اضطراب. وهو زمن انشقاق كنيستيْ **أنطاكيا**[56] و**الاسكندريّة**[57] وعقد مجمع **أفسس**[58] الذي ناقش انشقاق أسقف القسطنطينية المعروف بنسطور[59] وحرمانه من التمثّل الكنسي. وقد تلا ذلك انقسامات هائلة بين الكنائس الكبرى تنبعث من قضيّة الخلاف حول طبيعة المسيح ووضع العذراء.

ويحيل هذا الزمن على الاضطهاد الذي لحق الوثنيّين المصريّين وقد امتدّت المسيحيّة لتصبح ديانة الأغلبيّة المصريّة وتبنّتها الامبراطوريّة الرومانيّة وما عقب ذلك من صراعات واختلافات بين مجموعة من أطراف عدّة: (آباء الكنيسة والمؤمنون الجدد واليهود والوثنيّون)...

ولا يخفى نسق الرحلة عن الزمن الخارجيّ الذي يتمثّل في امتداد أحداث الرواية. والنصّ الذي تشكّل من فصول مختلفة تصل الثلاثين رقا تبدأ بالرقّ الأوّل الموسوم بـ"بدء التدوين"[60] يخبر فيه بطل الرواية عن خروجه من صعيد مصر في رحلته طالبا

---

[55]- نفسه، ص 11.

[56]أنطاكيا مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر العاصي على بعد 30 كم من شاطئ البحر المتوسط في محافظة هتاي التركية. بعد انقضاء الحرب العالمية الأولى عادت أنطاكية إلى سوريا ليحكمها السوريون بعد أن خرج الحكم العثماني التركي من الوطن العربي، ولكن سلطات الإنتداب الفرنسي على سوريا بين 1920 م و1946 م تخلت عن منطقة لواء الإسكندرون لتركيا ومن ضمنها مدينة أنطاكية سنة 1939 م، وذلك تحقيقا لمصالح معينة مخالفةً بذلك بنود اتفاقية الإنتداب بالحفاظ على وحدة أراضي الدولة المنتدب عليها.

[57]- الاسكندريّة: *كنيسة الإسكندرية* هي الكنيسة التي تأسست في فجر المسيحية على يد مرقس، وكان لها الأثر البالغ على الفكر المسيحي، وهي كنيسة رسولية، وكرسيها يعد كرسيًّا رسوليًا بالإضافة إلى أنطاكية وروما والقدس (أورشليم) (ثم أضيفت لهمالقسطنطينية في مجمع القسطنطينية الأول سنة381 م .

هى أكبر كنيسه مسيحيه فى مصر ,كنيسة اسكندريه المصريه انفصلت عن بقية الكنايس بعد مجمع خلقيدونيا سنة 451 م, و لحد دلوقتى الفروق الدقيقه فى علم اللاهوت اساسا عن طبيعة المسيح بتسبب انقسام الكنايس. الجذور التأسيسية لكنيسة اسكندريه المصريه الارتودوكسيه مبنية فى مصر لكن ليها وجود فى جميع أنحاء العالم عن طريق المهاجرين الأقباط

[58]- أفسس أهم مركز للمسيحية .استخدمها الرسول بولس كقاعدة له. لقد كان الرسول بولس يُجادل الحرفيين الذين كانوا في بمعبد أرطاميس (Temple of Artemis)، في سفر أعمال الرسل19:23-41 ، وبقوله هذا صرف المحتشدين.

كتب الرسول بولس رسالة كورنثوس الأولى من افسس. مذكورفي الموسوعة الكاثوليكية، ان الرسول والمبشر يوحنا عاش في آسيا الصغرى في اواخر عقود القرن الأول، ومن أفسس قاد الكنيسة. بعد موت دومشن (Domitian) عاد الرسول يوحنا إلى افسس، في عهد تراجان(Trajan) ، وقد مات حوالي سنة 100 بعد الميلاد.

ان افسس هي أحد المدن التي تم ذكرها في سفر الرؤيا 1:2–7.

منزل القديسة العذراء مريم (بالتركية " Meryemana مريمانة" أي معناه الأم العذراء)، يبعد بيتها 7 كم من مدينة سلكك(Selçuk) ، الذي يُعتقد بأنه اخر بيت سكنت فيه مريم العذراء "ام المسيح"، وهو الآن مكان للحج

مجمع أفسس Ephesus هو واحد من المجامع المسكونيه السبعه حسب الكنيستين الرومانية والارثوذكسية الشرقيه البيزنطيه ويعتبر واحد من المجامع المسكونيه الاربعه حسب الكنائس الشرقية السريانية والارمنيه والقبطية.

[59]- نسطورس: ولد نسطورس عام 381 م بمدينة مرعش في سوريا وتربى في إنطاكية وهناك ترهّب بدير أيروبيوس، وتتلمذ على يد المفسر الكبير ثيودوروس المصيصي، اختير بعدما تم تعليمه وبعد دراسته للكتب ليكون شماسًا ثم قسًا في كاتدرائية إنطاكية، واشتهر بفصاحته وقوة عظاته، ويؤكد المؤرخ الكنسي سقراط [3] أنه كان متكبراً ومعجباً بنفسه ولكن مع ذلك فأن العديد من الناس قد أحبوا هذا الغيور الشجاع الذي حاول ما في وسعه لإزالة جميع أشكال الهرطقة في الكنيسة، ودرس اليونانية ومبادئ العلوم في مرعش ثم تشبع بمبادئ مدرسة إنطاكية اللاهوتية، لذلك اختاره الإمبراطور ثيوذوسيوس الثاني ليكون بطريركًا على الكرسي للقسطنطينية.

[60]- يوسف زيدان، عزازيل، ص258

العلْميْن: الطبّ واللاهوت. وتنتهي بالرق الثلاثين الموسوم بـ"**قانون الإيمان**"[61] وقد هام على وجهه يضرب في الأرض لا علم ولا وجهة...

ولكنّ هذا التزمين يتشكّل في داخل ذات البطل متوسّلا تقنيات الاستباق والاسترجاع في حبكة تحتكم إلى العلامة الدالّة في الجملة الأخيرة من الرواية "**أمضيت يوميْن بالمكتبة أحاور عزازيل حتى أقنعته بأمور وأقنعني بأمور كنت متردّدا فيها... كان ممّا أقنعني به وصادف هوى في نفسي، أنْ أختلي بصومعتي هذه أربعين يوما أدوّن خلالها ما رأيته في حياتي منذ هروبي من قرية أبي، حتّى رحيلي عن هنا للقيام بما اتفقنا عليه...**"[62]

وتتشكّل هذه البنية الحكائيّة وفق بناء الرحلة في زمنيّة متداخلة قصّا متراتبة حدثا. فالرقوق لا تمضي متسلسلة إذ كثيرا ما يلتجئ هيبا إلى التقديم والتأخير بين الأحداث. فيكوّن حبكة مفكّكة. ويتجلّى ذلك عند حديثه في الرق الثاني (بيت الربّ) عن أورشليم وما حصل معه فيها من أحداث وشخوص قابلهم كنسطور وغيره، وبعد نهاية هذا الفصل الثاني يتوقف حديثه عن أورشليم وينتقل للحديث عمّا جرى معه في الإسكندرية في ثمانية رقوق (من الرقّ الثالث إلى الرقّ العاشر). ثم يعود بعد ذلك للحديث عما جرى معه في أورشليم مرة أخرى، ويظهر ذلك في الرق الحادي عشر الذي يخصّصه لبقيّة ما جرى في أورشليم). ويتداخل بين الرقّ الأوّل (بدء التدوين) والرقّ الثلاثين (قانون الإيمان).

فالزمان في الرواية بمختلف تشكّلاته زمن حكي وزمان خارجيّ وزمان داخليّ يتفاعل مع بقيّة تقنيات الخطاب لتشكيل الرحلة موضوعا روائيّا.

4– خاتمة:

كانت رحلة هيبا انتقالا في المكان أملا في طلب علميْ الطبّ واللاهوت معبّرة عمّا لاقاه من مشاقّ وصعوبات وما احتملته الذات من ذكريات تتدافع في النصّ بفضل عزازيل. وشأن انزياح أدب الرحلات إلى الرواية في عالم شعريّ فريد، صارت الرحلة في طلب العلم خطابا روائيّا في عزازيل.

وتشكّلت هذه المضامين الروائيّة وفق التقنيات الخطابيّة الروائيّة مكانا وزمانا وشخصيّات وأحداثا.

فالأمكنة تتتالى وتتتابع متناسقة مع الرحلة التي يقوم بها البطل. فانطلقت من نجع حمّادي بأخميم إلى الإسكندريّة فأورشليم ثم أنطاكيّة لتختتم بالانفتاح على المجهول.

والشخصيّات كان حضورها متتابعا وقلّما تكرّر حضور إحداها إلاّ نادرا. فبدأ من قصّة أبيه وأمّه وعمّه فأوكتافيا وهيباتيا ثم نسطور ثمّ مارتا التي شغفته حبّا لينتهي مختليا إلى نفسه.

والأحداث يتساوق بناؤها مع تتالي الأمكنة وتعاقب حضور الشخصيّات فانطلق بقرار الخروج من أخميم بعد مقتل أبيه وتزوّج أمّه من أحد قتلة أبيه. فيواصل رحلته في الاسكندريّة يخوض الغواية الشهوانيّة مع أوكتافيا والغواية العلميّة مع هيباتيا لكن حدث قتل العالمة هيباتيا وسحلها جعله يواصل رحلته نحو بلد الرب أورشليم فيلتقي نسطور الذي أحبّه واطمأنّ إليْه. ويرسله إلى دير ناءٍ يعيش فيه طمأنينة ويلقى مغنّية الأناشيد مارتا التي بعثت فيه نشوة الحبّ ورحلت إلى حلب وتركته غارقا في دوّامة الحمّى.

[61]- نفسه، ص357

[62]- نفسه، ص338

ولئن كشفت هذه المسيرة أفقيّا عن تشكيل التقنيات الخطابيّة الروائيّة لمسار الرحلة فإنّ القراءة العموديّة تكشف عن مزيد من التفاعل بينها فالمكان يتداخل مع الشخصيّات ويتفاعل مع الأحداث.

وقد تشاكلت هذه التقنيات لخدمة المقصد الرئيس وهو طلب علْميْ اللاهوت والطبّ.

فارتبطت نجع حمّادي بعلاقته بأمّه وأبيه وعمّه وارتبطت الاسكندريّة بأوكتافيا وهيباتيا وارتبطت أورشليم بنسطور وارتبطت أنطاكيّة بمارتا....

وهذا التفاعل قد قلّل من تكرّر حضور الشخصيّة أكثر من مرّة. وإنْ تكرّر حضورها فلارتباطها بمحاكاة الذات لما ينتابها من أوجاع الماضي. فكانت الرحلة تيها وبحثا وطلبا للعلم. وكانت الكتابة استرجاعا وعودة. فكانت الرحلة على قدر انزياحها في الأمكنة والشخصيّات والأحداث تشكّلا في ذات البطل هيبا وسفرا في أغوار النفس.

قائمة مصادر ومراجع

1- المصدر:

- زيدان (يوسف)، عزازيل، دار الشروق، الطبعة الأولى، القاهرة 2008.

2- المراجع:

- ادريس (سهيل)، الحي اللاتيني، دار الآداب، 1993
- باشلار (غاستون)، جدليّة الزمن، المؤسّسات الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع1982.
- جيرالدبرنس، المصطلح السردي، ترى جيرالدبرنس، المجلس الأعلى للثقافة، الطبعة الأولى، القاهرة1921،
- جيرالدبرنس، قاموس السرديات، تر السيد إمام، ميريت للنشر والتوزيع، ط1 ،القاهرة 2003
- حبيلة (الشريف)، بنية الخطاب الروائي دراسة في روايات نجيب الكيالني، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن2012.
- الحكيم (توفيق)، عصفور من الشرق، مكتبة مصر،1978.
- حقي (يحي)، قنديل أم هاشم،الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1994.
- الحلاج، كتاب الطواسين: [http://ahmadkelhy.blogspot.com]
- زيتوني (لطيف)، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، 2002.
- الصديقي (عبد اللطيف)، الزمان أبعاده وبنيته، ط1، المؤسّسات الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1995.
- ابن أبي الضياف (أحمد)، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، الدار العربيّة للكتاب، 1999.
- الطهطاوي (رفاعة رافع)، تخليص الإبريز في تلخيص باريز، دار المعارف للطباعة والنشر، سوسة تونس 1996.
- بن كراد (سعيد)، سيميولوجية الشخصيات السردية، المكتبة الوطنية،الطبعة الأولى، الأردن 2003.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت 1414هـ.
- يقطين (سعيد)، تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، المركز الثقافي العربي، الطبعة الثالثة، 1997.

- Léo H. Hoek, *La marque du titre : dispositifs sémiotiques d'une pratique textuelle*, Paris, Mouton, 1981 .Cité par J-P Goldenstein, *Entrées en littérature*, Paris, Hachette, 1990.

amarajeddari@yahoo.fr